ما رواه المغربي

رواية

ليلى العلمي

ترجمة

نوف الميموني

ملاحظة من المترجمة

قبل بدء رحلتك عزيزي القارئ مع مصطفى أودّ أن أبيّن مسألتين متعلّقتين بترجمة هذه الرواية. أوّلهما أن جميع الهوامش في الرواية هي من إضافتي. وثانيهما هو أني اخترتُ ترجمة الرواية بمحاكاة أسلوب الرحالة العرب في كتب الرحلات القديمة، مثل ابن بطوطة وابن جبير والإدريسي وغيرهم، مع الحفاظ على أساليب السرد الحديثة التي وظّفتها المؤلفة، للحفاظ على أبعاد النص الثقافية واللغوية. وتطلّب ذلك الرجوع إلى كتب التراث للوقوف على الأساليب والأسماء والأوصاف المستعملة في هذا السياق. رحلة سعيدة.

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، والصلاةُ والسلامُ على نبينا محمدٍ وآله وصحبه أجمعين. أما بعدُ فهذا المحرّرُ بيد الفقير إلى ربه مصطفى بن محمد بن عبد السلام الزموريّ، يسجل فيه سيرةَ حياته وترحاله من مدينة أزمور إلى بلادِ الهنود التي وطأ أرضَها عبدًا مملوكًا، وكان فيها ضالاً هائمًا بعدما انقطعت به السبلُ أعوامًا عديدة، وقبل أن ينجو من أصفادِ العبودية. ولّما أنّي كتبتُ هذه الحكاية بعد وقوع أحداثها بزمنٍ طويلٍ فقد اضطررتُ في نقلها إلى الاعتمادِ على حافظتي، ولا غرو إذ ذاك أن تكونَ المسافاتُ بين البلاد التي أذكرها خاطئةً أو المواقيتُ غير دقيقةٍ، وتلك هفوات هيّنة لا أستبعدها. وفيما خلا ذلك فأشهدُ أنّي لا أقول في كتابي هذا غير ما رأته عيناي حق الرؤية، وإن كان يحمل قارئَه على تكذيب قولي من ندرة ما جرى لي. ومرادي هو تصحيح دقائق القول فيما جرى لنا حسب ما رواه أصحابي في الرحلة، وهم ثلاثةٌ من وجهاءِ قشتالة يُدعون أندريس دورانتس دي كارانزا، وألونزو ديل كاستيو مالدنادو، وألفار نونييز كابيزا دي فاكا الذين قدّموا شهادتَهم، ما أسموه السجلَّ المشترك، إلى البلاط الملكي في سانتو دومنيغو. أما أولهم فكان سيدي ومخدومي، وأما الثاني فصاحبي في الأسر، وأما الثالث فمنافسي في الرواية. غير أنّي بخلافهم لم أُستدعَ للشهادة أمام مندوبِ الملك من إسبانية بما جرى في رحلتنا وحلّنا وترحالنا بين الهنود. ومع شهادتي أن السادةَ القشتاليين الثلاثة ذوو شرفٍ وأمانة، فإني لا أستبعدُ أنهم بأمرٍ من الأسقف ومبعوثِ الملك ومركيز الوادي، وانصياعًا لما تستتبعه عليهم

مراكزُهم، ما وجدوا بدًا من إخفاءِ بعض الوقائع وتهويلِ بعضها، وكتمانِ شيءٍ من التفاصيل وابتداعِ بعضها الآخر. أما أنا فما كنتُ يومًا مسؤولاً في جلسات وجهاءِ قشتالة ولا ملزومًا بسنن قومٍ لستُ منهم، فلا ضيرَ أراهُ في قولِ حقيقةٍ ما وقع لي ولأصحابي.

إن قصارى ما يبغيه أي امرئٍ أبيضَ كان أم أسودَ، سيدًا أم مملوكًا، غنيًا أم معدمًا، رجلاً أم امرأة هو أن يُذكر بعد موته. ولستُ بخلافِ بني البشر في هذا، فخلاصي هو النجاةُ من الظلمةِ المدلهمّة التي تنتظرني. وإن وَجَدَ كتابي هذا برحمةٍ من تصاريف القدرِ سبيلاً إلى يديّ ناسخٍ أمينٍ، يستنسخُ منه بلا تصريفٍ ولا زيادةٍ، ما خلا ما تفرضُه أصولُ الخطِ أو الزخرفةِ والرسم على نهجِ الأتراكِ والفرس، فلعلّ الله يأذنُ أن تبلغَ قومَي يومًا أعاجيبُ رحلتي، ويستنيرون منها قبسًا يهدي من أنار الله قلبَه، فوالله ما كان القصدُ منها إلا قولَ الحق وتسليةَ الروح.

1

حكاية لا فلوريدة

في عام أربعة وثلاثين وتسعمئة بعد هجرةِ سيد المرسلين، وأنا أعدُّ من سنّي ثلاثين عامًا، ومن أسري خمسة، ألفيتُ نفسي على حرف الأرض التي نعرفها، في مسيرةٍ طويلة وراء سنيور دورانتس، في أرض خضراء نضرة يسميها هو وقومه القشتاليون لا فلوريدة. ولا علمَ عندي بما يسميها قومي في أزمور، فما كان منادو المدينةِ يرفعون عقائرَهم بشيءٍ إلا أخبار المجاعة والزلازل والثورات جنوب بلاد البربر، ولا علمَ لديهم عن هذه البلاد. لكن لعلمي بأعراف التسميةِ لدينا نحن العرب فإني أجزمُ أننا كنا سنسميها بلادَ الهنود، على أنّ الهنود أنفسهم ولا بد يسمّونها كذلك اسمًا بلسانهم، وإن لم يعرفه سنيور دورانتس ولا غيره ممن في حملتنا.

وقد ذكَرَ لي سنيور دورانتس أنّ لا فلوريدة جزيرةٌ كبيرة، أكبرُ من قشتالة نفسها، وأنها تمتدُ منْ الساحلِ الذي أرسينا به إلى البحر الكاهل[1]، فمن المحيطِ إلى المحيطِ على حدِّ زعمه. وكلُّ هذه الأرض سيحكمها بانفيلو دي نارفاييز قائدُ الأسطول الحربيّ، وإن كنتُ في قرارةِ نفسي، ودون أن ينطق لساني بهذا الرأي، أشكُّ أو أتعجّبُ أن يسلّمَ ملكُ إسبانية حكمَ أرضٍ أكبرَ من بلاده لأحدٍ من رعيّته.

كنّا في قافلةٍ نقصد في مسيرنا مملكةَ الأبلاتشي في الشمالِ، وهي التي سَمِعَ عنها القائدُ سنيور نارفاييز من هنودٍ أَسَرَهم بعد أن أرستْ مراكبُ الأسطولِ

1- وهو المحيط الهادئ.

على ساحلِ لا فلوريدة. ورغم أنّي لم آتِ إلى هنا بمحض إرادتي فإني ارتحتُ أيما ارتياحٍ في اللحظة التي لمسَتْ قدماي البرَّ، فقد كان في الرحلةِ التي قَطَعْنا بها بحرَ الظلمات[1] من المنغّصاتِ والمكدّرات ما لا يعلمُه إلا من أَسلَمَ نفسَه لسطوةِ البحر. فخبزُ الرحلة يابسٌ، وشرابها نجسٌ، ومطاهرها دنسةٌ، ومع تقاربِ الناس في أماكنَ ضيقةٍ أمدًا ليس قصير تسوءُ أخلاقُهم وتقبحُ أمزجتُهم وتكثرُ شكاياتُهم. غير أنّ أسوأَ ما في الرحلةِ هي الرائحة؛ وهي رائحة زنخ أجسادِ الرجال إذا ما جافاها الماءُ مدةً، واختلطَ بها دخانُ المجامرِ وروثُ الخيولِ وزِبْلُ الدجاجِ التي التصقت بحيطان الزرائب مع تنظيفها يومًا بعد يوم. وإنها لرائحةٌ تزكم أنفَ المرء حالما ينزلُ إلى المقصوراتِ الدنيا.

كما أن فضولي مستثارٌ حول هذه البلاد إثر ما سمعتُه، أو ما تناهى إلى سمعي، من سيّدي وأصحابه من أحاديثَ كثيرةٍ عن الهنود، ومنها دعواهم أنهم ذوو جلدٍ أحمر وعيونٍ بلا جفون، وأنهم كفارٌ يدفعون البشر قرابين لآلهتهم، وأنهم يجرعون مشاربَ عجيبةً يصنعونها فتكشف لهم حُجُب الغيب، وأنهم يسيرون هم ونساؤهم عراةً لا يكسو عوراتهم شيءٌ، وهذا ما استنكرتُه واستعصى عليّ تصديقه، فصرفته على أنه من باب المبالغة والتهويل. وهذه البلاد مع ذلك قد أسرتْ خيالي حتى لم تعد مجرد مقصدٍ للسفر، بل أرض فيها العجائب والغرائب التي لا يستحضرها إلا عقلُ أبرع الرواة في أسواقِ البربر. وكذا هو أثر رحلة المرءِ لمّا يقطع عبابَ بحر الظلمات، وإن كان مرغمًا عليها دون خيار ولا رغبة. فإنه يهوي في مغبة مطامح الآخرين ومطامعهم إلى غير ذي رجعة.

وكان تركُ السفينة بادئ الأمر قاصرًا على جمعٍ صغير من القادة والجنود

1- وهو المحيط الأطلسي.

من كل مركب، ولمّا كان سنيور دورانتس قائدَ سفينتنا غراسيا دي ديوس[1] فقد اختار عشرين رجلاً وبمعيتهم هذا الفقير إلى ربّه مصطفى بن محمد للنزول، فركبنا زوارقَ التجديف حتى بلغنا الشاطئ. ووقف سيّدي بمقدمةِ المركب، يضع يدًا على خاصرته والأخرى على قائمِ سيفه، كهيئةِ من يقفُ أمام نحّاتٍ ليقدَّ صورتَه من الحجر، ويتّضحُ في مظهره مشاوفته إلى احتراز ثروات العالم الجديد.

وإذ تجلّى صباحُ أحد أيام الربيع باهيَ السماء صافيَ الماء، مشينا من الشاطئ بتؤدةٍ قاصدين قرية صيد لمحها أحدُ البحّارة من علّو الصاري على مسافة رمية سهمٍ من الساحل. وإن أوّلَ ما أدركتُه من البر هو السكونُ الذي اكتنفنا. ولربما كانت كلمةُ السكون تجانبُ الحقيقةَ، فثمّة صوت الموج وصوت الرياح تحرّك أشجار النخيل، وعلى طول الطريق تدانت زمج الماء[2] يحدوها الفضول، فظلّت ترصد حركتنا ثم ما لبثت أن طارت ترفرف بأجنحتها. ومع كل هذا شعرتُ بخواء عظيم.

كان في القرية نحو اثني عشر كوخًا من سعف النخل، مسنّمة بأعمدة من خشب، وموزّعة في دائرة عريضة، يفصلُ بين كل زوجٍ منها والذي يجاوره مسافةً كافية للطبخ وحفظِ الطعام. ووجدنا الخشبَ في مواقدِ النار المتفرقة في حدود القرية لم يحترق بعد، وثلاثةَ غزلان معلّقة من عارضة سُلخت جلودها فقطرت دماؤها على الأرض. ولا بشر في القرية. فأمر الحاكمُ أن يبحث الجنود فيها، فعثروا في الأكواخ على أدوات طبخ وتنظيف، وجلود حيوانات وفرائها، ولحم وسمك يابسٍ، ومن بذور تبّاع الشمس والثمار والفاكهة الشيء العظيم. ولقد وضع الجند أيديهم على كل ما رأته أعينهم

1- تعني بالعربية: هبة الإله

2- النوارس

على الفور، والواحد منهم متمسكٌ بما سرق يواريه إلى حين أن يقايضه بالحاجات التي يريدها. ولم آخذ شيئًا ولم يكن معي ما أبادلُ أحدًا به، غير أني غصصت بمرِّ الهوان لشهودي تلك السرقات وقلةِ حيلتي في نهرهم عن إتيانها، فاحتسبتُ نفسي شريكًا معهم فيما اقترفوه.

وبينما أنا واقفٌ مع سيدي عند باب أحد الأكواخ، إذ لمحتُ كومة شباك صيدٍ، فرفعتُ إحداها أدقق النظر بكيفية صنعها فوجدتُ تحتها حصاةً صغيرة غريبة. ظننتُ أول الأمر أنها ثقلٌ يثبّتُ الشِبَاك على الأرض، لولا أن عليها أوتادًا ملساء من حجر لا تشبه هذي الصفراء الخشنة التي بيدي. ثم خلتُها لعبةَ صبي، فهي كالحجارة التي يلعب بها الصغار أو يملؤ بها الناس خشخاشَ الرضيع، ولعلّ أحدهم نسيها على الشباك. ورفعتها أقرّبُها إلى النور كي أستطلع أصلَها، فرآها سنيور دورانتس وسألني: إستبانكو، ماذا وجدّتَ؟

وإستبانكو هو الاسم الذي سمّاني القشتاليون به بعدما اشتروني من التجّار البرتغاليين. وهو اسم ثقيلٌ على اللسان غليظٌ على الآذان. فعندما وقعتُ في شرك الرّق، أُكرهتُ على أن أنبذ بعد حريتي اسمي الذي اختاره لي والداي، واسمُ المرء غالٍ يحمل في ثناياه لغةً وتاريخًا وعاداتٍ وإيمانًا، وخسارته يعني انفصامَ عرى الروابط التي تصلني بتلكم الأمور. فما استطعتُ يومًا أن أدفع ثقلَ إستبانكو عني، فما هو إلا رجلٌ وُلد على يد رجالِ قشتالة ولا يشبهني في شيءٍ قط. تلقّف سيدي الحصاةَ من بين أصابعي وسأل: ما هذا؟

لا شيء سنيور.

لا شيء؟

مجرد حجر.

دعني أرَ. حكّ الحصاةَ بظفره فظهرتْ من تحت التراب الذي غطّاها صفرةٌ فاقعة. وسيّدي رجلٌ محبٌ في الاستطلاع مبتغٍ للمعرفة مجدٌ في طلبها، وربما كان ذاك الشغف هو ما أغراه بهجر ترف قصره في بيهر ديل كاستنيار، ليسعى وراء خيرات أرضٍ مجهولة. ولم أكره فيه فضولَه في معرفة العالم الجديد، غير أني حسدته على يقينه بمجد مخلِّد كلما ذكر إيابَه إلى بلاده.

أعدتُ قولي. إنه لا شيء.

وإني أظن غير ذلك.

إنها ولا بد قطعة نحاس.

أو قد تكون ذهبًا. قلّب الحصاةَ بين أصابعه لا يدري ما يصنع بها. ثم استقر رأيُه فركض إلى القائد سنيور نارفاييز الواقفِ في وسط القرية ينتظر إتمام عساكره للبحث، فنادى سيّدي: دون بانفيلو. دون بانفيلو[1].

وحرّي بي هنا أن أصف الحاكمَ لك. إن أوّل ما يُرى من وجه هذا الرجل هي رقعة سوداء فوق عينه اليمنى، تفزع قلب من ينظر إليه، لولا خدّاه الغائران وذقنه. وهو يعتمر في غالب الأيام خوذة من حديدٍ فوقها ريش النعام، وإن لم تكن ثمة حاجة إليها. وعلى درعه من ناحية الصدر وشاحٌ أزرقُ، يمتد من كتفه وينتهي بعقدة كبيرةٍ تحاذي فخذَه. وهو على اهتمامه بحسن مظهره جلفٌ شديدُ الغلظة، كأحقر واحد من جنده. ولقد رأيته مرةً بينما هو يتكلّم مع أحد ربابنة سفنه عن أحمال السفينة يسدّ أحد منخريه بإصبعه، ويقذف من المنخر الآخر سيلاً طويلاً من النخامة.

قبض الحاكمُ سنيور نارفاييز الحصاة بأصابعَ نهمةٍ، ورفعها إلى الضوء ليستبينها وحكّها، ثم استقرت في راحة يده المفتوحة كقربان، وقال بصوت

1- دون تعني سيد

غليظ وقور: هذا ذهب. أحسنتَ يا كابتن دورانتس. أحسنت. واجتمع القادةُ حول الحاكم فرحين، وانطلق جنديٌّ إلى الشاطئ يبلغ الآخرين بخبر الذهب. ووقفتُ خلف سنيور دورانتس أستظلُّ بظله، وكلي يقينٌ أن الفخر استفاضَ على وجهه، وإن لم أرَ وجهه في تلك اللحظة. فمنذ أن اشتراني قبل عامٍ في إشبيلية تعلّمتُ أن أستدل بظاهره على باطنه، فبتُّ أفرّقُ بين منتهى سعادته واعتدالِ رضاه، وبين شدّة سخطه وتوسّطِ انزعاجه، وبين غاية قلقه وقلّة اهتمامه. وهذه درجاتٌ متقاربة من مزاجه ينجم عنها أفعالٌ تمسني بنفع أو أذى. فهو في ذلك الموقف مثلاً فرحٌ باكتشافي، وإن منعه الكبرُ أن يقول لهم إنّي من وجد الذهبَ، فآثرتُ الركون إلى الصمت والاستغراق في لجج النكران، تاركًا له وحدَه عز الاكتشاف.

ثم أمر الحاكمُ فنزل ركابُ الأسطول. واستغرق نقلُ كل البشر والخيل والأمتاع إلى الشاطئ الرملي الأبيض ثلاثةَ أيام. والناسُ مع ازدياد أعدادهم يحتشدون حول من كان قرينهم في المكانة، بغيةَ حصول الألفة لسابقِ معرفة. فتجدُ الحاكمَ يقف مع قادته بدروعهم وخوذاتهم ذات الريش، ومبعوثَ البابا يحادث الرهبان الأربعة وكلهم يلبسون مسوحًا داكنةً متشابهة، والفرسانَ يتجمعون مع حملة السلاح من البنادق والقربينات[1] والقسّي والسيوف والرماح ذوات الأنصال الحديدية والحِراب والسكاكين. وهنالك بعدُ أهلُ الحِرَف الذين يزمعون استيطانَ هذه الأرض، وهم النجارون والحدّادون والإسكافيون والخبّازون والفلاحون والتجار، وغيرهم ممن لا علم لي بحرفهم أو أني نسيتها. وعشر نساءٍ وثلاثة عشر طفلاً يقفون جمعًا وتحيط بهم صناديق من خشب. أما العبيد ويقارب عددهم الخمسين، ومنهم عبدُ الله كاتب هذا الكتاب، مصطفى بن محمد، فكانوا منتشرين في الأرجاء،

1- بنادق ذات فوهات قصيرة.

كلٌ منهم يقف قرب مولاه، يحمل متاعه أو يحرس أمتعته.

واكتمل الجمعُ على الشاطئ في عصرِ اليوم الثالث، والجَزر منخفضٌ والأمواج ساكنةٌ، فانحسر شطرٌ من الشاطئ أسودُ. وقد لَطُفَ الجوُّ حتى صار الرملُ باردًا لزجًا تحت قدميّ. وتراكمت السحبُ الثقال عاليةً في قبّة السماء، فلاحَ قرصُ الشمس دائرةً بعيدة بلا وهج، والضبابُ الكثيف يدنو من جهة المحيط يسلبُ العالمَ من حولنا ألوانَه، فصار كلُّ الكونِ أبيضَ رماديًا، وغشِيَه السكون.

تقدّم كاتب الأسطولِ هيرنمو دي ألبانيز، وهو رجلٌ مربوع بدين ذو عينين كعينيّ البوم، فوقف بين يديّ الحاكم نارفاييز وفضّ لفافةَ ورق، وأنشأ يقرأ بصوتٍ رتيب: باسم الملك والملكة، نعلنُ أن هذه الأرضَ ملكٌ للإله ربنا الحي الباقي، وأنَ الإله قد كلّف رجلاً واحدًا وهو القديس بطرس بحكم بني آدم في هذه الدنيا أينما كانوا، وأي شرع أو ملّةٍ أو دين اعتنقوا، وأن وليّ القديس بطرس في ذلك هو الأبُ المقدس البابا، وهو من تطوّعَ هذا البلدَ البكر خيرًا للملك والملكة. فنشهدكم أنّ الكنيسةَ هي حاكمةُ هذه البلاد، وأن القسّيس المسمى البابا والملكَ والملكة هم حكّامُ هذه الأرض. سكتَ سنيور ألبانيز عن الكلام بغتةً، وبلا إذنٍ ولا اعتذار قرّب من فمه قربةً كانت معلّقةً على كتفه، وارتشف منها الماء.

وظلّت عيناي معلّقتين بوجه الحاكم الذي بدا مغتاظًا من هذه المقاطعة، لكنه أحجم عن الاعتراض ولو بكلمة، فما كان سيجني من ذلك شيئًا سوى إطالةِ زمن المراسم بلا معنى. أو أنه لم يستحبْ أن يغضبَ الكاتبَ، فلولا الكتبةُ والموثقون ما عرف أحدٌ ما فعل الحكّامُ، فلذا آثر الصبرَ وإبداء الاحترام، على قلّته.

مسح سنيور ألبانيز فاه بظاهر يده على غير عجلٍ ثم أكمل بيانه. فإن

امتثلتم لما نقولُ فلكم منّا النجاة وستلقّاكم لقاءً حسنًا، وإن أبيتم الطاعةَ أو استعصيتم بأذى، فائذنوا بحربٍ منا في كل حينٍ وعلى كل وجهٍ، تُسبى فيها نساؤكم وأولادكم، وتؤخذ منكم أموالكم ويحلُّ عليكم منّا العذاب والهلاك، فيكون الموتُ والخسران جزاءَ ما اقترفته أيديكم أنتم، لا بفعل مولانا ومولاتنا ولا جندهم الحاضرين هنا. وبعدُ فإننا نسألُ الكاتبَ أن يقدم شهادتَه مكتوبةً، وأن يُشهِدَ الحاضرين على ملكية الأرض.

لم أعِ أنّ هذه الخطبة كان يُقصد بها الهنود إلا عندما وصل سنيور ألبانيز في كلامه إلى التهديد والوعيد، وكذلك لم أفهم لِمَ قال ما قاله هنا على هذا الشاطئ إن كان حديثًا مرسلاً للهنودِ الذين فرّوا من قريتهم من قبل أن نبلغها. فوقع في نفسي غرابةَ فعلِ هؤلاء القشتاليين، فهم يرون أنّ ما ينطقُه لسانهم يُكتب في صفحة القدر، فعلمتُ أنّ هؤلاء الغزاة، مثل من سبقهم ومثل من يليهم، يلقون الخطبَ لا لإقرار الحقّ بل لافتراءِ الإفك.

ولمّا سكت سنيور ألبانيز أخيرًا عن الكلام قدّم اللفافةَ مطأطئ الرأس إلى الحاكم نارفاييز، وانتظر بينما يوقّع المكتوبَ باسمه، ثم التفت الحاكمُ إلى الناس وأعلن أنّه سمّى هذه القريةَ بورتيو، فخفض القادة رؤوسهم ورفع جنديٌّ الراية، وكانت من قماشٍ أخضرَ مطرّزٍ بدرعٍ حمراءَ في وسطه. فتذكرتُ حينئذٍ رايةَ ملك البرتغال مرفوعةً فوق قمة برج الحصن في أزمور قبل سنين عدة عندما كنت صبيًا، وما برحتْ تلك الذكرى عقلي لأن ذلَّ ذاك اليوم حيٌّ بداخلي، فهو اليومُ الذي تبدّلتْ فيه حالُ أسرتي، اليوم الذي تكدّر فيه صفو حياتنا، اليوم الذي رُميتُ فيه بعيدًا عن بلدي. وها هو التاريخُ يعيد نفسه في أرضٍ أخرى ومع أناسٍ آخرين، فلا عجبَ إذ وجدتُ الفزعَ مما هو آتٍ يتمكن مني.

***

وفي صباح اليوم الذي يليه، وقع ما كنتُ أخشى وقوعَه بعد أن تناهى إلى أسماعنا صوتُ جلبةٍ واضطراب وراء مخزن القرية. فقد أمرني سنيور دورانتس أن آخذ من أطراف شعر رأسه الأشقر الغزير بعض الشيء، كما أنّ لحيته نمت وطالت، بيد أنه لم يأمرني بحلقها، لعلّه أحسّ بأنّ من الممكن أن يتخلّى عن مظاهر التكلّف بالنظافة طالما أنه وصل حدود الإمبراطورية، ولعله أطال لحيته لاستطاعته، ولعلمه أن الهنودَ لا يستطيعون كما سمعنا عنهم. والحق أني لم أسأله عن السبب، بل قد استشعرتُ راحةً أن تخففتُ من عملي. أقولُ إننا كنّا على تلك الهيئة إذ سمعنا صياحَ العسكر، فهبّ سنيور دورانتس واقفًا، والفوطةُ البيضاء ما تزال منوطة بعنقه، وقَطَعَ القريةَ راكضًا ليستطلعَ الأمر، وتبعتُه أنا والمقصّ الإشبيلي ما يزال في يدي، فعلمنا أن العسكر عثروا على بضعة هنود يختبئون وراء الشجر، وأنهم اعتقلوا منهم أربعةً.

وكان الأربعةُ كلهم رجالاً، وكان الأربعة كلهم عارين. ولقد رأيت هنودًا من قبلُ في جزر كوبة وجزر لا إسبانيولة حين أرسى الأسطولُ لابتياع المؤنِ، ولكنّي لم أرهم عن قربٍ قبل ذاك الحين. ولم أعتد رؤيةَ رجالٍ يمشون وأجسادهم مكشوفة دون حياء ولا خجل، فلم يكن مني إلا أن شَخَصَ بصري بهم. وكانوا طوالاً ذوي بسطةٍ في الجسم، وبشرتهم بلون التربة بعد استسقائها بماء المطر، وشعورهم مسترسلةٌ مدهونة، وعلى أذرعهم اليمنى وسيقانهم اليسرى وشومٌ على أشكالٍ لم أفهمها. وكان في عين أحدهم غمشٌ، فذكّرني بعمّي عمر، وظل هذا يطرف بعينه مرارًا يحاول أن يمعنَ نظره في آسريه. أما الآخر فكان يتطلع حوله في القرية يقدّر ما اختلف فيها منذ وصولنا؛ ومن ذلك الصليب الضخم المنصوب بجوار المعبد، وراية الحاكم الخافقة فوق ساريةٍ في الميدان، والخيولُ المربوطة بالأعمدة التي ركزوها في أرجاء القرية. وإنّ القصصَ التي سمعتُها عن الهنود جعلتني

أظنّهم مخلوقاتٍ عجيبةً لا مثيل لها سوى الجنّ الذين ينفثون نارًا، غير أنّ أولئك الرجال بدوا لي مأموني الجانب مغلوبين على أمرهم، ليس كمثل الجنود القشتاليين المحيطين بهم، وقد أحكموا وثاقهم وقادوهم إلى الحاكم نارفاييز.

وأخرج الحاكمُ من جيبه الحصاةَ التي وجدُتها وبسط كفَّه يريهم إياها، ثم سألهم عنها. أين وجدتهم الذهب؟

فلم يشح الأسرى أعينهم عنه، ونطق اثنان منهم بلسانهم. وما تعلّمتُ بعد ترتيبًا للأصوات التي تخرج من أفواههم، ولا أين مبتدأ الكلمة الواحدة أو منتهاها، مع العلم أنّ نشأتي في أزمور وهي مدينة تجارية قد غرستْ فيّ حبَّ ألسنِ البشر ويسرًا في تعلمها. ولا أقصد من ذلك التفاخرَ والله، فكنتُ بطبيعتي تواقًا إلى معرفة لسان الهنود مع عدم احتوائه على أيٍّ من الخصائص التي تعينني على تعلم لسانٍ لم أعهده من قبل، كالأصوات المتشابهة، أو الكلمات المشتركة، أو النبرات المماثلة. ولكنّي عجبتُ لمّا هزّ الحاكمُ رأسه كمن فهم مقصد كلام الهنود تمام الفهم ووافقهم الرأي.

ثم أعاد الكرّةَ بسؤالهم: أين وجدتم الذهبَ؟ والجنود من ورائه ينظرون وينتظرون. والطيورُ تغرّد فوق أغصان الشجر وتصدحُ بغنائها لا مباليةً بالقيظ الخانق، وأمواجُ البحر تهمهم من جهة الشاطئ، وشممتُ الدخانَ مع النسائم، فقد أوقد أحدهم نارًا لطبخ آلمويرزو[1]. فكان جوابُ الهنود للحاكم بأن أعادوا ما قالوه، ولعلّك تظن أنّي واثقٌ أن ما ردّوا به كان جوابًا، والصحيحُ أني لا أجزم بهذا القول، فربما كانوا يسألون الحاكم سؤالاً، أو يطلبون مبارزته، أو يتوعّدونه بالهلاك إن لم يطلق سراحهم.

1- الغداء

فأنصتَ الحاكم بحِلْمٍ لإجاباتهم، ثم التفت إلى حاجبه وقال: احبسهم في مخزنِ الطعام واجلب لي السوط.

ورجع سنيور دورانتس إلى مقعده فتبعتُه، ولم ينطق أينا بكلمة، وانصرفتُ إلى قص شعره. ولما فرغتُ ناولته مرآةً صغيرة ورفعتُ أخرى وراء رأسه، فرأيتُ وجهينا على المرآتين المتقابلتين، ورأيتُ الرضا مرتسمًا على وجه مولاي، وهزّ رأسَه مستحسنًا وهو يقلّب وجهه ذات اليمين وذات الشِمال. وكانت لحيته تحجب ندبةً على خده الأيمن، سمعتُه مرةً يحكي لضيوفه على مائدة العشاء أنها أثرُ جرحٍ أصابه عندما شارك في إخماد ثورةٍ ضد الملك قبل أعوام في قشتالة. ولقد عوّدني الرق على أن أحجبَ ما بباطني كيلا يظهر على وجهي، ولكنّي رأيتُ في المرآة في ذلك اليوم عينيّ تفيضان قلقًا، وأخذتُ أحدّث نفسي: أنّ الفضول دفعني لأتحقّق من نوعِ شباك الصيد التي يستعملها الهنودُ، وأني لم أكن بفعلي أقصدُ البحثَ عن الذهب، ومع هذا فإنّ الحصاة التي وجدتُها أفضتْ إلى جلد أولئك الرجال الأربعة، رجال ما ضرّوني في شيء، وها أنا ذا وسيّدي معي نصمّ آذاننا عن صراخهم الذي انقلب عويلاً طويلاً يرتجف بالألم، حتى سمعتُ صداه يتردد في روحي، وما لبثوا غير قليلٍ حتى ساد الصمتُ ولم يقطعه إلا فرقعاتُ السوط المخيفة.

وبينا أنا أعاون سنيور دورانتس على انتعال حذائه، سمعتُ أخاه الصغير دييغو، وهو فتى في السادسة عشرة أو السابعة عشرة، يستعلم منه عن لقاء الحاكمِ بالهنود. وشتّانٌ بين دييغو وسنيور دورانتس، حتى إن المرءَ ليعجب من قرابتهما بالدم. فالصغيرُ حييٌّ سليم الطويّة يتخيّر رفاقه بعناية، والكبيرُ كثيرُ التجاسر شديدُ المكر متعجلٌ بالمحبة والبغض. ورغم هذا فدييغو يحتذي مسلكَ أخيه الكبير ما استطاع. فكان طوقُ قميصه غير مزرورٍ، ويميل خوذته إلى الوراء كجندي أضناه النَّصَب، وقد حاول إطلاقَ لحيته

وإن لم يجُنِ من محاولته إلا خروجَ رقعٍ متناثرة من الشعر على خديه. سأل دييغو: متى تعلّمَ دون بانفيلو لسانَهم يا أخي؟ أزارَ لا فلوريدة من قبل؟

رمى سنيور دورانتس أخاه بنظرة هزلٍ، وإن أجاب على الفور عن سؤاله لأنه لم يجد في ذلك سوءًا. فقال: هذه هي المرةُ الأولى التي ينزلُ هذه الأرض مثلنا، ولكنّه داهيةٌ خبيرٌ في أمور المتوحشين، ويعرف كيف يجعلهم يفهمونه، ولن يكلّ حتى ينتزع منهم ما يريد معرفته.

ولم أفهم كيف يتأتّى هذا، غير أنّي لم أتكلم لعلمي بأن سيّدي لن يرضَ بأن يشكّ أحدٌ بقدرة الحاكم على فهم الهنود، وقد قالوا في الأمثال: الكلبُ الحيُّ خيرٌ من الأسد الميت.

ثم سأل دييغو: ولكن لِمَ يضربهم بالسوط؟

فأجاب سنيور دورانتس: لأن الهنودَ قومٌ كذّابون. أرأيت أولئك الأربعة؟ إنهم عيونٌ بُعثوا ليترصدونا وينقلوا أخبارَنا. ثم حلّ الضيقُ محل الهزل في صوت مولاي، فقام ومرر أصابعه على عنق حذائه الطويل حريصًا على إدخال طرفيّ سرواله فيه. ثم أردف: لن يقولوا الصدق إلا بعدما يُجلدون بالسياط.

***

وجَلَدَ الحاكمُ الأسرى الأربعة إلى أن اقتنع بأنهم لم يكتموا شيئًا، فاستدعى القادةَ كي يجتمعوا ذلك المساء. فاجتمعوا في أكبر دارٍ في القرية، وكانت معبدًا أو مكانًا شبيه به يدخله مئة رجلٍ ولا يزدحمون فيه. ولم يدعُ الحاكم إلا ثلةً من الخواصّ رفيعي الشأن، وهم: مبعوث البابا، وخازن الرحلة، وجابي الضرائب، والكاتب، وقادة المراكب ومنهم سنيور دورانتس. وقد أزال الخدمُ عند الأصيل تماثيلَ من خشب لنمور سوداء طُليت عيونها

بالأصفر، وتحمل بين أيديها محاجن حربٍ وطبولِ أخالُهم يستعملونها في شعائرهم الكافرة، فكان المعبد ساعةَ اجتماع السادة خاليًا، وأعجبني منه سقفُه المزخرف بصدف البحر المتراصّة فانعكست الأنوار عليها.

ثم قَعَدَ القادةُ الإسبان واحدًا واحدًا على مراتبَ هنديةٍ دائرةٍ بطاولة عريضة، غطّاها حاجبُ الحاكم بقماش أبيض، ووضع على طرفيها شمعدانين. ثم أخذ الحاجب يقدّم الطعام، وكان سمكًا مشويًا وأرزًا مطبوخًا ولحم خنزيرٍ ميبّس وفاكهة طازجة وميبّسة من مخزن القرية. وقد أدركني بمرأى الطعام جوعٌ أشدُّ مما أدركني في ركوب البحر، وليس لي إلا أنْ أنتظرَ إلى ما بعد فراغِهم من وليمة العشاء حتى آكلَ نصيبي اليسير.

وأعلن الحاكم سنيور نارفاييز أمام قادته أنّ قطعةَ الذهب قد جُلبت من مملكة غنيةٍ اسمها أبلاتشي، وأنها على مسيرة أسبوعين شمال هذه القرية، وأنّ حاضرتها تملكُ من الذهب الشيءَ الكثير، وكذا من الفضّة والنحاس ومعادن نفيسة أخرى، وتحيطُ بالمدينة مزارعَ ذرةٍ وبقول شاسعة، ويسكنها أناسٌ كثيرون، ويجري بمقربةٍ منها نهرٌ يمتلأ بالسمك من كل شكل ولون. وقال الحاكم إنّ قولَ الهنود، والذي سجّله سنيور ألبانيز بطلبٍ من الحاكم، جعله يجزمُ بأنّ ثراءَ مملكة الأبلاتشي يضاهي ثراء موكتيزوما[1].

فوقع عليهم القولُ كضربةِ البرق، ورأيتُ العجبَ على جملة وجوه الحاضرين، ولا أنكر أنّي شهقتُ معهم دهشةً، حيث إني سمعتُ حكاياتٍ كثيرة في إشبيلية عن الإمبراطور الغني وقصره المكسّو بالذهب والفضة. فبلغ بي الحماسُ ما بلغ بالقادة أو يزيد، حتى سرحتُ في خيالٍ بعيد. فماذا لو وقعتْ هذه المملكةُ بيد القشتاليين؟ وصار سنيور دورانتس من أغنى رجال هذه الأرض؟ وقد غرّني الأملُ المخادع أنه إنْ صار كذلك، فلربما يسرّحُ العبدَ

1- أحد أباطرة الأزتك.

الذي دلّه على هذا الطريق، إما عرفانًا له بجميله، أو من طيبِ نفسه، أو فرحًا بالمال والعزّ. وكم غرقتُ في بحر الخيال! سوف أرحل عن لا فلوريدة على متن مركب متجهٍ إلى إشبيلية، وأسافر من هناك إلى أزمور، مدينتي التي على حدّ القارة القديمة، وسأرجع إلى أهلي وأرتمي في أحضانهم، وألمسُ طوبَ الجدار الخشن في فناء بيتنا، وأسمع بأذني تدفقَ أم الربيع إذا جرى فيه فائضُ مطر الربيع، وأقعدُ على سطح بيتنا في ليالي الصيف الدافئة، والهواء مطيّبٌ برائحة التين الناضج، وسوف أتكلمُ بلسان أجدادي كما نشأتُ، وأسير على مسالكم بعدما مُنعتُ، وسأعيشُ ما بقي من عمري بين قومي. وما باليتُ ألا أحدَ وعدني بهذا كله ولا عَرَضَه، ونسيتُ في غمرة طمعي وملاحقتي هذا السراب كُلفةَ حلمي على أناس آخرين.

ورفع القادة كؤوسهم صوب الحاكم يشربون نخب الأخبار السارة، فزادها العبيدُ، ومنهم عبد الله مصطفى بن محمد خمرًا (وإنه لعسيرٌ عليّ يا قارئ كتابي أن أعترف بأني صببت لقومٍ ما حرّمَ الله، ولكني ارتأيتُ أن أحكي كل ما جرى لي وألا أكتم أي شيءٍ). ورفع الحاكم يديه يسكت الحاضرين ثم قال: لكن ثمّة مشكلة، فالأسطولُ بالغ الضخامة، فيه أربعة كارافيلات، وجليونًا[1]، وستمئة رجل، وثمانون فرسًا، وخمسون ألف رُبعٍ[2] من الأسلحة والمؤن، ولا يمكن احتمالها معنا في هذه الغارة. فقرّر أن يقسم الحملة إلى فريقين متساويين، أوّلهما هي الفرقة البحريّة، ومنهم الملاحون والنساء والولدان والمرضى والمحمومون والمعتلّون، فيبحر هؤلاء محاذين ساحلَ لا فلوريدة حتى يبلغوا أقربَ بلدةٍ في إسبانية الجديدة، وهي مرسى بانكو عند مصبّ نهر ريو دي لاس بالماس، فيرسون هناك وينتظرون. أما الفرقة

1- الكارافيل والجليون: نوعان من السفن ذات الأشرعة.

2- الربع: وحدة وزن قديمة استعملها الإسبان والبرتغاليون وتعادل ٢٥ رطلاً.

الثانية ومنهم صحاحِ الأجسام ممن لهم إطاقة على السير، أو امتطاء الخيل، أو حمل الزواد والسلاح والذخيرة، فيقطعون البرَّ متجهين إلى الأبلاتشي، فيخضِعُونها ثم يبعثون سريّة أقل عددًا للقاءِ فرقة البحر. ودعا الحاكم قادتَه إلى تخيّر أفضلِ الرجال ممن صاحبوهم على متون سفنهم.

فبُهت القادة كأن على رؤوسهم الطير، وما لبثوا أن تكلّم عددٌ منهم في آنٍ واحدٍ محتجين على هذه الخطة، وكان أعلاهم صوتًا رجلاً في مقتبل شبابه يعدّه مولاي أقربَ أصحابه إلى نفسه يُدعى سنيور كاستيو. وقد انضمّ إلى الحملة في آخر لحظةٍ بعدما سَمِعَ عنها في وليمة عشاء في إشبيلية. ولكاستيو صوتٌ ذو غنةٍ، فيتمثل لمن يسمعه كصوت طفل، وله بنيةٌ هزيلة تحسبه فتى لم يبلغ الحُلُم. وأذكرُ أنه قام من مقعده وبيّن مخاطرَ إرسال السفن كافةً والمؤن معها إلى مكانٍ، وارتحالنا نحن إلى مكان آخر في غارةٍ متوغلين في البرّ، وقال إن لا خريطة معنا، ولن تكون لنا وسيلةٌ للاستزادة من المؤن إن طال المسيرُ عما نعدُّ له، بل إن ربابنةَ السفن مختلفون في تقدير المسافة إلى بانكو. وكان سنيور كاستيو يقول رأيه بلا معاداةٍ ولا مطاولة، أما المعترضون الآخرون من القادة الذين احتجوا ثم سكتوا فقدّموه للكلام باسمهم.

فأجاب الحاكمُ سنيور نارفاييز بطيب نفس: صحيحٌ أننا لا نملك خرائط، ولكن معنا الهنود الأربعة، وسوف يعلّمهم الآباءُ لساننا فيكونون لنا أدلاء وتراجمة، أما طولُ المسير فقد رأيتُ قلّةَ سلاح المتوحشين، فلن نلبث طويلاً إذًا حتى نقهرهم. لم يكن الحاكمُ مرتديًا درعه تلك الليلة بل قميصًا أسود، وكان يرفع أكمامه بين الفينة والأخرى ثم ينزلها. وقال: فلنناقش الآن كيفية تقسيم أعدادنا.

مسح سنيور كاستيو بيده على شعره الداكن الكثِّ، وهي عادةٌ عنده تفضح اضطرابَه، ثم قال: العفو منك يا دون بانفيلو ولكنّي لا أرى بعدُ

صوابَ إرسال السفن بعيدًا عنّا والربابنةُ لمّا يتفقوا على دقةِ تقدير المسافة بيننا وبين إسبانية الجديدة.

فكان ردُّ الحاكم أن قال إننا لسنا بعيدين عن بانكو، وإن كبيرَ الربابنة قدّر بأنّ المرسى على بعد نحو عشرين فرسخًا من هنا، والربابنةُ الآخرون يقولون إنها خمسةٌ وعشرون، فلا أرى أنّ الاختلافَ عظيمٌ.

فأنتَ إذًا ترى أن نرسل المراكبَ بلا تأكّدٍ ولا تثبّت؟

فحدج الحاكمُ سنيور كاستيو نظرةَ حنقٍ من عينه السليمةِ وأجاب بأنّ هذا هو ما يراه حتمًا.

وماذا إنْ ضلّتْ السفنُ في طريقها إلى المرسى؟ ولقد وَضَعَ بعضُنا أموالاً طائلة في تسيير هذه السفن، ولا نبتغي خسارتَها.

أتحدثني عن تكاليفِ المراكب يا كاستيو وأنا الذي وضعتُ كلَّ ما أملك في هذه الحملة؟ ثم أجال الحاكمُ بصره فيمن حوله متحيّرًا. إن خطتي بسيطةٌ أيها الكرام. سوف نشدُّ الرحالَ إلى مملكة الأبلاتشي بينما تنتظرنا السفنُ في مرسى آمنٍ يحرزُ منه الملاحون أيَّ مؤنٍ يحتاجون إليها. وقد فعلتُ مثل هذا في حملتي في كوبة قبل خمسة عشر عامًا. وابتسم الحاكم ابتسامةَ حنينٍ لأمجاده التي مضت، ثم خصَّ سنيور كاستيو بنظرةٍ وقال: عندما كنتَ رضيعًا لم تزل.

فانقلب وجه الشاب وتضرَّج حمرةً ثم قعد.

وإن بدتْ خطةُ الحاكم للقائدِ الشاب جسورةً تنقصها الحكمةُ، فإني أعلمُ يقينًا أنها خطةٌ محكمة. وقد جرّبها إرنان كورتيس[1] قبل بدء رحلته إلى تينو شتيت لان لسلبِ ثروات موكتيزوما بأن أغرقَ سفنَه في مرسى فيراكروز،

1- مستكشف إسباني ومحتل مملكة الأزتك

وقبل سبعة قرونٍ أحرق طارق بن زياد مراكبه على سواحل إسبانية. فمن العدل القولُ إنّ خطةَ الحاكم سنيور نارفاييز تمتاز بالحذر، لأنه ينوي إرسالَ السفن إلى أقربِ ميناء برسم انتظار قدومنا والتزوّد بالمؤن، فلم أستصعب الأمرَ كسنيور كاستيو، بل إنّ بعض البغضِ داخلني تجاهه لحُجَجِه التي تعطّل رحلتنا إلى مملكةِ الذهب، وترجئ تحقق حلمي بالحرية.

غير أنّ سنيور كاستيو التمس النجدةَ من سنيور كابيزا دي فاكا الجالسِ أمامه وسأله: ألا تراها مخاطرةً نحن في غنى عنها؟

وسنيور كابيزا دي فاكا هو خازنُ الحملة، والمتولّي تحصيل خراج الملك من أي ثروةٍ نجدها في لا فلوريدة. وسرتْ شائعةٌ أنه من المحظيين عند الحاكم، فهابه جميعُ الرجال وإن تناولوه بالتنابز والسخرية من وراء ظهره بسبب اسمه العجيب، فكانوا يسمّونه بكابيزا دي مونو بسبب أذنيه البارزتين كأذني قرد[1]. شَبَكَ كابيزا دي فاكا أصابعه البيضاء الملساء ذات الأظافر النظيفة. يدا سيّدٍ ذو شرف. وقال: ثمةُ مخاطرة، والمخاطرة حتمًا واقعة، لكنّ الهنودَ في هذه الأرض يعلمون بوجودنا الآن ويتعيّن علينا المسيرُ على الفور قبل أن يحشدَ ملكُ الأبلاتشي جيشه لقتالنا، أو يعقد تحالفًا مع القبائل المجاورة. فلن يحسن بنا تضييع فرصةِ فتح الأبلاتشي وإدخالها في حرز جلالة الملك. وكان كلامُ سنيور كابيزا دي فاكا مصطبغًا بفكرٍ نبيل مترفع لا تشوبه صغائر الأمور، كالنظر في حال السفن التي ستعيدنا إلى بلادنا. فأومأ بعض القادة لأن الخازنَ رجلٌ حكيم عليم ذو تجربة، وله حظوة عند الرجال.

احترق الشمع حتى طرف ذبالته، وعلى ضوئه المتقطع أنزل مبعوثُ البابا نطاقَ ثوبه أسفل كرشه وبدأ الكلام، فقال: إنّ هذه الرحلة صعبةٌ منذ

1- يعني اسم كابيزا دي فاكا بالعربية (رأس البقرة)، أما كابيزا دي مونو فتعني (رأس القرد).

بدايتها؛ فالسفر من قشتالة، واكتراءُ ربابنة عليمين بشؤون الملاحة في بحار الغرب، وتهيئة السلاح والخيل، كل ذلك أخذ من أعمارنا نحو سنة كاملة. ولقد خسرتْ الحملة من رجالها الكثير، إثر الفرار أو بفعل المرض، وإنه لإثمٌ مقيت أن نصل لا فلوريدة ثم نرجئ أمر الرّب أكثر من ذلك. وكلما عجّلنا بإيجاد أبلاتشي وإنشاءِ مدينة نصرانية صالحة كان توفيقُ الإله ورضاه حليفَنا.

حلّ الصمتُ على المجلس كله، ثم تنحنح القائدُ سنيور نارفاييز وقال: أريدُ مَنْ أؤمّره على السفن في مسيرنا نحو أبلاتشي، فإن لم يرد كاستيو خوضَ الغابات...

لم يدارِ الحاكم إهانتَه في عرضه، فقام سنيور كاستيو متأهبًا للذود عن شرفه بحزمٍ وقال: دون بانفيلو، لا...

لكن سنيور دورانتس أمسكَ مرفقَ صاحبه يقيه من زلّاتِ لسانه التي كادت تودي بصيته، وقال: بل سوف يذهبُ معنا.

فأرسلَ الحاكمُ المراكب بالبحر إلى مرسى بانكو، وقاد قافلةً فيها القادة والأجناد، والآباء والمستوطنون، والحمّالون والخدم متوغلين في قلب أحراش لا فلوريدة. مسيرةٌ طويلة من ثلاثمئة رجلٍ يبحثون عن مملكة الذهب.

بدأنا مسيرَنا في أرضٍ منبسطة كثيفة الشجر لا تكاد الشمسُ تتغلغل بينها، وإنْ تسلّل نورها بين التعريشات المتشابكة نرى لونًا أخضر باهتًا أو أصفر واهيًا. وإن كتمتْ الأرضُ الناعمة حوافر الخيل، فإنّ غناء الجند العالي، بأصواتهم الخشنة وصرير دروع القادة، وقعقعة الأدوات داخل أحمال المستوطنين تعلن عن اجتياز قافلتنا للسهول الخضراء. وما أنْ نلج من بين الشجر حتى نجدُ مستنقعًا راكدًا أمامنا، تحيط به الجذورُ المكشوفة وتظلّله الفروعُ الرطبة. وكلما خضتُ مستنقعًا خرجتُ والوحلُ الرمادي يغطّي

ساقيّ، ويتخلل بين أصابع قدميّ، فتكاد الحكةُ تذهب بعقلي.

وبينما كنا نجتاز مستنقعًا كبيرًا سمعتُ عبدًا اسمه أوغستينو، وهو رجل مثلي رحل به الطمعُ والظروفُ من أفريقية إلى لا فلوريدة، سمعتُه يطلب العونَ في زكيبةٍ من القنّب ثقيلةٍ كان يحتملها فوق رأسه. فمشيتُ نحوه مارًا بجوار زهور بيضاء انتشيتُ بعبيرها. وارتفعتْ فقاعاتٌ من الماء حولنا، وكأنّ الماءَ يستنشق نفسًا يريحه، وبينما يداي ممدودتان أقصد أخذَ كيس القنب، إذ بوحشٍ أخضرَ يثبُ من تحت الماء وينهشُ أوغستينو. فسمعتُ عظام المسكين تنقصم، ورأيتُ الدم ينفجر على الماء حولنا، وأوغستينو يُجر تحت الماء وهو يصرخ. فخرجتُ من المستنقع جريًا كأسرع ما تحتمله ساقاي، وقلبي يرتجف بخوفٍ عظيم ما شعرتُ به مذ كنتُ صبيًا أسمع حكايات أمي في أمسيات الشتاء، عن الغيلان التي تسرق الأطفالَ الذين يجسرون على ولوج الغابات. ولما وصلتُ الضفّةَ سقطتُ على ظهري، ورأيتُ الوحش يختفي وهو يضربُ الماء الموحلَ بذيله.

وما كان في لسان القشتاليين ولا في لساني اسمًا لذاك الحيوان، فصرنا نسميه حيوانَ الماء ذا الحراشف، وهو اسم ثقيلٌ لن يستسيغه الإسبانُ بعد أن ضمّوا لا فلوريدة تحت جناحِ دولتهم، فتراهم يسمّون كل شيءٍ حولهم باسمٍ جديد من لغتهم، وكأنهم خلقوا هذا الخلقَ، تعالى الله أن يتشبّهوا بشيء من صفاته. ورجع الحاكمُ إلى ضفة المستنقع وسأل: عبدُ مَنْ ذاك، وما كان في كيس القنب؟ فأجابه أحدُهم: هذا عبدٌ مملوكٌ لرجل من المستوطنين، وفي الكيس قدورٌ وصحاف وملاعق. همهم الحاكمُ بردٍ وعلى وجهه سيماء الضيق، ثم رفع صوته وقال: سيكون اسمُ هذه الدابة إِل لغارتو لأنها تشبه العظاءةَ العملاقة.[1] وأنّى بنا نسيانُ اسم ذاك الشيء؟ حتى كاتب الرحلة لم

1- إِل لغارتو كلمة إسبانية وتعني السحلية

يهتم بتدوينه.

ولم يكن إلى لغارتو العثرةَ الوحيدة في مسيرةِ الحاكم، فالجراياتُ التي قسّمها بيننا لم تكن كافية، وكان أمرُه أن يكون نصيبُ كلّ رجل رطلين من الخبز اليابس ونصفَ رطل من لحم الخنزير، ولكل خادمٍ ومملوكٍ نصف ذلك. فبات الرجال يبحثون أبدًا عن زادٍ يسدّون به جوعهم بصيد الأرانب أو الغزلان، ولكن الحاكم منعَ من كان منهم يحمل القسيّ أو البنادق من التصيّد بها، خشيةَ استنفاد الذخيرة فيما لو قاوم هنودُ الأبلاتشي. ولم أكن أحمل سلاحًا غير عصاي التي أتوكأ عليها، فكنت أهشّ بها عشَّ طيرٍ ما رأيتُ واحدًا وآكلُ بيضه، أو ألتقط ما سقط من ثمر النخيل، وكان أصغرَ وأصلب من تمر بلدي، أو أذوق ثمارَ شجيرات لم أرها من قبل، بعد اختبارها أولاً بأن أمضغَ واحدةً أو اثنتين قبل أن أتجاسر على ازدراد المزيد.

ولم يشعر سنيور دورانتس بأيِّ معاناة، حيث إنه قد تكلّف من ماله في التجهيز لهذه الرحلة، فكان جزاؤه هو وآخرون مثله أنْ كان لهم النصيبُ الأكبر من الطعام. وكان يمتطي صهوةَ أبيخورو، وهو فرسه الأندلسي أشيبُ اللون، لمّاحُ النظرة، أسودُ القوائم، قويُّ المتن ذو جَلد. ويحاول السيد إزجاء الوقت بالحديث مع دييغو أخيه، وإن آثر عامةً صحبةَ سنيور كاستيو، فكم مرةً رأيته يلكز حصانَه ليلحق فرسَ صاحبه البيضاء. أما أنا فأمشي حيثما أَمَرَني سنيور دورانتس، أي وراءه بخطوةٍ واحدةٍ في كل آنٍ. فما كان يرضيه أن يقطع هذه الرياض العجيبة سعيًا لاحتراز نصيبه من مملكة الذهب فحسب، بل أراد شاهدَ عيان على طموحه. وكان يرى حاله في بداية فتحٍ جديد مجيدٍ، فأراد جمهرةً تواكبه بإعجابٍ، وإن كان ما يفعله الآن هو السير لا غير.

وصباحُ ذات يوم، بعد مسيرة نحو أسبوعين، خرجنا إلى نهر عريض

تلتمع مياهه بنور الشمس الوهّاج حتى كادت تُذهِب بالبصر، فإذا ما وقفتَ على ضفة النهر رأيتَ سرعةَ جريانه وصفاءَ مائه، حتى إنّك لتعدّ الحصى الأسودَ في قاعه. فأعلن الحاكمُ أنّ اسم هذا النهر ريو أُسكورو[1] بسبب كثرة أحجاره السوداء. لكنّ الرجال ما توقفوا ولا سمعوا قوله، لأنهم كانوا يصيحون: أغوا! بور فين! غراثيس آ ديوس! ديهاميه باسار أومبريه![2]

ترجّل سنيور دورانتس، فسقتُ أبيخورو إلى الماء وخضتُ فيه أنا لأغسلَ الطينَ الرماديّ عن ساقيّ ونعلتيّ، وظننت أننا سنرتاح على ضفة النهر برهةً، بيد أنّ الحاكم أمر نجّاريه ببناء قوارب على الفور كي ينتقل أولئك الذين لا يسبحون إلى الضفة الأخرى، وكان جملةُ الرجال لا يجيدون العوم. وكان الوقت آخر الربيع والنهارُ طويل، وفما أنْ أُعدّتْ القوارب وجاوزت الجماعة الأولى النهرَ حتى استحال ضوء الشمس إلى صفرةٍ كلون الكهرمان.

أما الضفةُ الأخرى فهي منبسطة جرداء ينتأ منها لَبابٌ[3] هنا وهناك، ومن ورائها حائطٌ من قصب أخضر طويلٍ تنمو من خلفه الغابة. وهبّ نسيمٌ بارد هزّ أغصان شجر الصنوبر على مبعدةٍ ولفح بدني، فنفذ عبر قماش قميصي الخشن وأنا أحكمُ ربط سراج أبيخورو على ظهره وأمسح على عنقه. والتفّ القادةُ والأجناد سويًا، وهم أولُ من جاوز النهر بالقوارب، والحاكمُ مشغول بحديث طويلٍ مع مبعوث البابا، مميلاً برأسه نحو الراهب القصير، كما لو أنه لا يسمع إلا بإذن واحدة. وسنيور دورانتس يعلّم سنيور كاستيو كيفية ربط درعه ربطًا يقي جلده من الاحتكاك المؤلم. ورجلان يتجادلان في مهماز حصان.

---

1 - وتعني النهر الأسود

2- ماء! أخيرًا! الحمد لله! دعني يا رجل!

3- القليل من العشب

وإذّ ذاك حالُنا فإذا بجماعةٍ من الهنود تبرزُ من وراء حائطِ الشجر، واجتمعوا صامتين على الأرض المستوية. وكان بعضُهم عراةً، وآخرون يغطّون عوراتهم بجلود الحيوانات المطلية بأشكالٍ زرقاء وحمراء، ويحملون أسلحةً مصنوعة من عظام الحيوانات، ورماحٍ وقسيّ ومقاليعَ من الخشب المصلّد بالنار. وهم مع أسلحتهم وعددهم الذي شارف المئة لم يتعرضوا لنا. فظلّت كلُّ جماعةٍ ترقب الأخرى بفضول طفلٍ يرى انعكاس وجهه في المرآة لأول مرة. ثم امتطى الحاكمُ فرسه برويةٍ وتَبِعَه القادةُ من ذوي الخيل، وسحب الحاجبُ ساريةَ علم الحاكم من مكان انتصابها في الأرض ورفعها، فخفقَ العلمُ في الهواء.

نادى الحاكم: ألبانيز!

وسنيور ألبانيز هو كاتبُ العدل المكلّفُ في هذه الرحلة، والمتولي حفظ عقودِها وعرائضها، والموكّلُ بتدوين سيْرها خلال الشهور المقبلة. وقد أثار محضرُه ساعتئذٍ، في أول لقاءٍ لنا مع قوم من الهنود، ذكرى أبي الذي كان يحلم أن أصير كاتب عدلٍ مثله، وشاهدًا ومدوّنًا لأهم الأحداث في حياة الناس. فاستشعرتُ أنّ أمانيّ أبي التي نبذتُها بلا خجل ولا أسفٍ قبل أعوام عديدة ما انفكّت تقبض عليّ وتلاحقني حيثما اتجهت، وإن كنتُ هنا في هذه البلاد الغريبة. وإن كنتُ أرى أنّ حلمَ أبي تحقق في آخر الأمر، فها أنا أسجّلُ حكايةَ رحلة نارفاييز لغرضٍ في نفسي.

فأمره الحاكم: قلْ للمتوحشين أن يأخذونني إلى الأبلاتشي. وكان يرى أنّ الكلام مع الهنود بلا وسيطٍ لا يليق بقدره.

فترجّل سنيور ألبانيز، وعلى محيّاه حنقُ خادمٍ أُمِرَ بفعل مذلٍ، ثم تقدم نحو جماعة الهنود، فأشار إلى ما وراءه وقال: هذا هو بانفيلو دي نارفاييز، الحاكمُ المولّى على هذه الأرض بأمرٍ من جلالة الملك المعظّم، ويريد الذهابَ

إلى مملكة الأبلاتشي ولقاءَ حاكمها، لمناقشة أمورٍ ذات أهمية عظيمة للشعبين، ويريد أن تصحبوه إلى هناك.

ولم أدرِ أصعبُ على الهنود فهمُ أمر الكاتب أم أنهم أبوا طاعته، فقد ظلوا صامتين. وفتّشتُ بينهم عن قائدهم فلم أعرف إن كان ذاك الرجل المعمّم بطاقيةٍ من شعر الدواب، أم الآخرَ ذا الوشوم الجمّة.

وأحاط سنيور ألبانيز قبضتيه حول فمه ليبلغ صوتُه أبعدَ مدى، وصاح بهم: خذونا إلى مملكة الأبلاتشي. وكان هنديًا منهم قد تقرفص منشرحًا لمرأى الرجلِ ذي القميص الحديدي والقبعة المريّشة الذي يصرخ ويحرّك يديه.

وصاح سنيور ألبانيز ثالثةً: مملكة الأبلاتشي!

وكانت القواربُ في ذلك الحين قد جاوزت النهر بجماعةٍ ثانية من فرقتنا، فنزل منها مزيدٌ من البشر، من الجند والمستوطنين والخدّام والأسرى، فلحقوا بنا دون كلام، فاحتشد جمعٌ كبير وفاق عددنا جماعةَ الهنود.

ثم قال الحاكم: حسبك يا ألبانيز. ونظر وراءه فأمر: إليّ بالأسرى.

تناقل الرجالُ الأمرَ، ثم تقدّم جنديٌّ من الراجلة يسوق الأسرى وراءه. وحيث إني مع مولاي أبدًا في مقدمةِ قافلتنا الطويلة فلم أرَ الأسرى مذ غادرنا بورتيو قرية الصيد. جرجر المعتقلون خطاهم، وتقدّموا جماعتنا واقتربوا من الحاكم بأيدٍ مصفّدة بحبل طويلٍ، ينتهي آخرُه بنطاق الجندي الحارس، وعلى جلودهم خطوطٌ متصالبةٌ من أثر السياط، وقد ضمرتْ جوارحهم من قلةِ الطعام. وكان واحد منهم منكسًا رأسه على هيئةٍ خلتها تخالفُ الطبيعة حتى نظرتُ إلى وجهه إذ بأنفه قد جُدع، والدمُ والمخاط مجتمعٌ على حواف الجَدَعَةِ، والذبابُ يحوم حوله. وما كان بوسعه أن يهشّه لأن يديه موثقتان. فأشحتُ بصري عن منظره المجفلِ، وكرهت في قلبي رؤيةَ رجلٍ على هذه الحال.

ووقف الأسرى بجانب سنيور ألبانيز، فقال هذا لواحدٍ منهم: بابلو، قل لهم أن يأخذونا إلى الأبلاتشي.

وما كاد الفتى الذي سمّاه سنيور ألبانيز بابلو، وقد جُزَّ شعرُ رأسه الملبّد الطويل وغطّت القروحُ كتفيه، يفتح فاه للكلام بلسانه فإذا بحربة تمور الهواءَ من جانب الهنود. فانقلب الجندي الذي كان يقبضُ ذراعَ بابلو على وجهه وخرَّ صريعًا وهو يمسك عنقه، والنصلُ قد نفذ من خلاله إلى الناحية الأخرى. وفغر الجنديُّ فمَه ولكن لم يخرج من جوفه إلا الدمَّ. فأطلق الهنودُ صرخاتِ عويل إيذانًا بالحرب، فشلّني خوفٌ رهيبٌ.

وصاح سنيور ألبانيز صيحةً عظيمة، وولّى مدبرًا يبحث عن حصانه. وهتف الحاكم: آندليه![1]

ووكز سنيور دورانتس فرسَه فتقدّم، وضربني أبيخورو بذيله على صدري وأنا ألتفتُ أبحث عن ساترٍ يحميني، وإن لم يكن ثمة أماكن للاختباء. فحاولتُ الهربَ صوب النهر، لكن فوجًا من القشتالين تقدّم من تلك الناحية، فسدّوا طريقَه عني وأجسادُهم تتكالب عليّ، فما كان مني إلا أن جثوت على ركبتيّ. وأزّت طلقاتُ البنادقِ من فوق رأسي، وأبصرتُ جنديًا عن يميني، فتى لم يتعدَّ الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، يرفعُ سلاحه ويطلق النار فأصاب أحدَ الجندِ من قومه. وسمعتُ المحاربين الهنود يتقدّمون من خلفي، وهم يصيحون بهتافاتٍ لا تحتاج إلى ترجمان.

ويسّر الله لي سبيلاً لأحتمي بحِزَمِ الأمتعة، ومنها صناديق تحوي عدّة النجارة، فأقعيتُ وراءها وظننتُ أنّي آمنٌ. ثم سمعتُ تأوّهَ ألمٍ مكتومٍ، فالتفتُ فإذا بأحد المستوطنين القشتاليين يصارع هنديًا وراء أيكةٍ على بعد

1- أي تحركوا

عشر خطوات من مكاني. وكان بيدِ الأبيض مجرفةً يحاول أن يصيب بها الهندي في أي جزءٍ من جسمه، فأخطأ وعاجله الهنديُّ بضربةٍ من فأسه بترتْ ذراعَ المستوطن من مرفقه تمام البتر، وأتبعها بثانيةٍ على رأسه فهوى الرجلُ إلى الأرض صريعًا وعيناه مفتوحتان.

تلفّت الهندي حوله يبحث عن خصمٍ آخر، فألصقتُ ظهري بلوح الصندوق. وظهر عليه العجبُ حين رآني، أنا الأسود بين البيضان، فتحيّر باختلاف لوني عن لون الآخرين، ولم يكن معي سلاح كما ذكرتُ. فلم يدرِ أيخلّي سبيلي أم يقتلني، فعزمَ على القتلِ، وتقدّم مني رافعًا فأسه فانقلبتُ عن مكاني، وانقضّ عليّ ووزنه يضغط على فخذي، وشعره الطويل يسقطُ على وجهي فيعمي عينيّ. وكان قريبًا مني حتّى إنّي شممتُ رائحةَ عرقه وغضبه الأحمر، ومئزره المصنوع من جلد الحية. فتصارعنا على الأرض أحاول دفعَه عني بأن أصدّه بعقب يدي على فكّه، فزلقتْ كفي على وجهه الأمرد. ولكمني فلكمته، واستوى فوقي ثم قام والفأس مرفوعةٌ بيده، فظننتُ أن ساعتي حلّتْ لا محالة، لكنّ الله عصمني بفضله، وشاء أن تنفذَ طلقةٌ غائرة فيه أطاحت به. ولما سقط الهنديُّ مزّقتْ الفأسُ لحم ساقي، فكان جرحًا خفيفًا أصاب قصبتها. فصرختُ ولا أذكر ما قلتُ وإنما أحسب أني لم أقل شيئًا، بل كانت صيحةَ ارتياحٍ أن نجوتُ من القتل، فأخذتُ الفأسَ من مقبضها وغالبت الخوف، وشددتُ على قلبي وعزمتُ أن أدافع عن نفسي.

جثوتُ على ركبتيّ، واسترقتُ النظرَ من فوق صناديق الخشب أنظر إلى أرض المعركة، فرأيتُ الجنودَ ذوي الدروع يطلقون سهامهم ورصاصاتهم، ورأيتُ الهنودَ يردّون عليهم برماحهم وحِرابهم. ولقد أوقعَ الهنودُ خسائرَ جمّة في صفوف القشتاليين؛ فهذا قشتاليٌّ بخوذةٍ صدئة يترنّحُ من فوق فرسه ويداه تقبضان على حربةٍ اخترقت فخذَه، وآخرُ قد وقع بضربةٍ طوّحها مقلاعٌ، بيد

أن أذى القشتاليين بغرمائهم أشدُّ وقعًا. ولا زلتُ أذكر هنديًا من مصارِعِهم قد تناثرتْ أحشاءُ بطنه وهو يشدّها إليه بذراعيه، وآخر يصرخُ ومن فوقه جنديٌ يهشّمُ عظامه بدبوس.[1]

وما كنتُ رجلَ حربٍ وما خضت يومًا معركةً، ومع ذلك فحتى الجاهل يدرك أنّ الكفتين غيرُ متساويتين، وأنّ النصرَ ليس حليفَ الهنود. وشرعتُ أبحث بين النقعِ الثائر عن سيّدي، الرجلِ الذي اتّصل مصيري في الدنيا به. أين هو؟ رأيتُه على فرسه وراء صفِ رماة، يقطع بسيفه هنديًا حتى ترشّش الدمُ من بين منكبيه، فطُرح الرجلُ على الأرضِ ووطئه أبيخورو في طريقه وسيّدُه يقوده نحو خصمٍ آخر. واهتدى بقيةُ الفرسان إلى الوسيلة عينها فشرعوا يدوسون الهنود من قِبَلهم بحوافر خيولهم.

وعندها انطلق صوتُ نفيرٍ فتراجع الهنود. وكانت الشمس قد غربتْ فاستعسر عليّ التثبّت من وجوهِ الصرعى المطروحين على الأرض، واسترشدتُ في سيري بصوت مقارعة الأجنادِ للهنود ورائحة الغبار والدخانِ أكثرَ مما استرشدتُ بالبصر وحده. فحدّثتُ نفسي أنْ يا أرحم الراحمين، ما عساي فاعلٌ في هذه البلاد الغريبةِ، في معركةٍ تسلّطَ بها قومان لا أنتمي إليهما؟ كيف آلَ بي الحالُ هنا؟ وما تزال تلك الهواجسُ تتقلّبُ في عقلي، وجسدي متصلّبٌ لا يرضى حراكًا، فإذا المشاعلُ قد أُوقدت والأسماءُ تُنادى، ثم برز المستوطنون والآباءُ الرهبان من حيثما اعتصموا، خلفَ صندوقٍ أو شجرةٍ أو جسدِ ميتٍ. ومن ورائنا اهتاجَ ريو أُسكورو ودوّى صوتُه وهو يجري إلى مصبِّه في المحيط.

1- سلاح قديم وهو عبارة عن عصا غليظة تنتهي برأس مربع أو مستدير من حديد.